مجلة الجامعة الأسمرية: العلوم الشرعية والإنسانية
المجلد (31) العدد الثاني (ديسمبر 2018)

*المداخل المنهجية للقيم الإسلامية

محمد الصادقي العماري

مركز تدبير الاختلاف للدراسات والأبحاث، فاس، المملكة المغربية

Email: sadikiamarimohamed@gmail.com

مدخل:

جاءت الشريعة الإسلامية رسالة هداية للمجتمع البشري، رسالة هداية الخلق إلى تحقيق المصالح، ودفع المفاسد، في العاجل والأجل، لذلك فلا نبالغ إذا قلنا أن الشريعة الإسلامية شريعة أخلاقية، لأنه لا معنى لجلب المصلحة ودفع المفسدة إلا الهداية للقيم والأخلاق الفاضلة المحققة لهذه المصالح والمنافع، فثبت بذلك أن موضوع القيم الأخلاقية قضية مركزية في الشريعة الإسلامية.

لكن موضوع القيم الأخلاقية كغيره من الموضوعات الإنسانية، كثر حوله الاختلاف وتعددت الآراء في معالجته، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بعلاقة القيم بالدين، وقد ذكر طه عبد الرحمن أن اختلاف الفلاسفة حول هذا الموضوع يمكن حصره في ثلاث اتجاهات: الأول: تبعية القيم الأخلاقية للدين. الثاني: تبعية الدين للقيم الأخلاقية. الثالث: استقلال القيم الأخلاقية عن الدين[1].

[1]. سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط/1، (2000م)، ص: 29-42.

لكننا في هذه الورقة لا نريد أن ننحو منحا مناقشة الفلاسفة في موضوع الفصل والوصل بين القيم والدين، بل نقدم وجهة نظر شرعية تعتمد على مداخل منهجية تحاول الإجابة عن سؤال القيم في الشريعة الإسلامية، وهذه المداخل حسب وجهة نظرنا هي:

المدخل المنهجي الأول: مفهوم القيم: وذلك لما لتحديد المفهوم من قيمة علمية، وخصوصا وأن مفهوم القيم من المفاهيم التي تختلف فيها الأنظار، وكثرت بخصوصها الآراء، استنادا إلى المرجعيات المختلفة للباحثين في الموضوع.

المدخل المنهجي الثاني: مصادر القيم: ويتعلق الأمر بالمرجعية التي يرجع إليها في الكشف عن هذه القيم واستنباطها، ولا يخفى ما لهذه القضية من أهمية، في سياق الحجاج والجدل العلمي، فهي بمثابة المقدمة الثانية بعد تحديد المفهوم.

المدخل المنهجي الثالث: خصائص القيم: والمقصود بها الخصائص التي تميزت بها هذه القيم في التشريع الإسلامي، الأمر الذي جعلها ملائمة للطبع البشري، موافقة لخلقه وتكوينه.

المدخل المنهجي الرابع: مقاصد القيم: ربط الشرع بين القيم الأخلاقية وما تحققه من مصالح أو مفاسد، وفي ذلك إشارة تربوية إلى منهج الإسلام في ترسيخ القيم في النفوس، وإيقاظ الباعث الداخلي على تمثلها والتحلي بالسامي منها، والتخلي عن الهابط منها.

وأعتقد أن بناء الموضوع على هذه الأربعة مداخل يجلي الموضوع، ويجعله واضحا على مستوى التصور والممارسة، لأن ما يقع من اختلاف معرفي حول جل القضايا الإنسانية ومنها منظومة القيم، وما يقع من تفلت أخلاقي وقيمي في السلوك الإنساني في العصر الحاضر، راجع بالأساس إلى عدم البناء المنهجي بشكل يرتب القضية في الذهن بطريقة تجعلها يقينية أو قريبة من اليقين، الأمر الذي يحفز على الفعل والتطبيق في الواقع.

المدخل المنهجي الأول: مفهوم القيم

1. المفهوم اللغوي:

لفظ القيمة مرتبط بمادة:(قَوَمَ) والتي استعملت في اللغة لإفادة عدة معان ومنها:

1.1. ثَمَنُ الشَّيْءِ وقيمته[1]: القِيَم: جمع قيمة، والقيمة بالكسر وَاحِدَةُ القِيَمِ، وهو ثَمَنُ الشَّيْءِ وقيمته، وقرأ نافع وابن عامر ﴿الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾[2] أي قيمة للأشياء، وقرأ الباقون ﴿قِياماً﴾ بالألف، وَالْمَعْنَى جَعَلَهَا اللَّهُ قِيمةَ الأَشياء فَبِهَا تَقُوم أُمورُكم، وأَصلُه الوَاوُ؛ لأَنَّه يَقُومُ مَقَامَ الشَّيءِ. ويُقالُ: مَالَهُ قِيمَةٌ، إِذَا لَمْ يَدُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلم يَثْبُتْ، وَهُوَ مَجَازٌ.

2.1. الاستقامة والاعتدال[3]: واسْتَقَامَ الأمرُ: اعْتَدَلَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (الأحقاف:13) مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿اسْتَقَامُوا﴾ عَمِلُوا بِطَاعَتِهِ ولَزِموا سُنة نَبِيَّهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَالَ الأَسود بْنُ مَالِكٍ: ثُمَّ اسْتَقَاموا لَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَقَامُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، .. القِيَمُ الاسْتِقامةُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»[4] فُسِّرَ عَلَى وَجْهَيْنِ: قِيلَ هُوَ الاسْتقامة عَلَى

---

[1]. ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت: 573هـ)، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط/1، (1420هـ/1999م)، 5692/8. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي(ت:1205هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، مادة(ق و م)، 312/33. لسان العرب، ابن منظور(ت:711هـ)، دار صادر، بيروت، ط/3،(1414هـ)، مادة: (قوم)، 498/12-500. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر(ت:1424هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط/1، (1429هـ/2008م)، 3/ 1878.

[2]. قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾(النساء:5).

[3]. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة: (قوم)، 498/12. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، مادة(قوم)، 312/33.

[4]. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله بن أسد الشيباني (ت:241هـ)، رقم: 14816، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي،

الطَّاعَةِ، وَقِيلَ هُوَ تَرْكُ الشِّرك. أَبو زَيْدٍ: أَقَمْتُ الشَّيْءَ وقَوَّمْته فَقامَ بِمَعْنَى اسْتقام، قَالَ: والاسْتِقامة اعْتِدَالُ الشَّيْءِ واسْتِواؤه.

3.1. التمسك بالشيء والثبات عليه[1]: القَائِم بالدِّين: المُسْتَمْسِك بِهِ الثَّابِتُ عَلَيْهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: إنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزام قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنْ لَا أَخِرَّ إِلَّا قَائِمًا»[2] .. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ بَايَعْتُ أَنْ لَا أَمُوتَ إِلَّا ثَابِتًا عَلَى الإِسلام والتمسُّك بِهِ. وكل مَنْ ثَبَتَ عَلَى شَيْءٍ وَتَمَسَّكَ بِهِ فَهُوَ قَائِم عَلَيْهِ.

وهذه المعاني اللغوية الثلاث التي اخترتها أعتقد أنها أقرب المعاني اللغوية لدلالات للفظ "القيمة"، وإن كان المعنى الأول أقواها وأقربها لدلالة لفظ القيمة، لأن كون الشيء له قيمة يعني أن ذلك الشيء يحقق الخير والنفع والصلاح، وهي صفات ذاتية لهذا الشيء، وقيمة الشيء تحدد بما يحققه هذا الشيء من منفعة للإنسان.

2. المفهوم الاصطلاحي:

والقيمة في الاصطلاح تعني: "مَا قُوِّمَ بِهِ الشَّيْءُ بِمَنْزِلَةِ الْمِعْيَارِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ."[3]، وبذلك لا يختلف المعنى اللغوي الذي رجحناه لمعنى القيمة عن هذا المعنى الاصطلاحي، وهو قيمة الشيء وثمنه، فهي إذا صفات

مؤسسة الرسالة، ط/1، (1421هـ/2001م)، حَدِيثُ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيّ، رقم الحديث: 15416، 141/24.

[1]. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة:(قوم)، 500/12-501. تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، مادة(ق و م)، 316/33.

[2]. مسند الإمام أحمد بن حنبل، مُسْنَدُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، رقم: 15312، 28/24.

[3]. البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم المصري (ت:970هـ)، دار الكتاب الإسلامي، ط/2، بدون تاريخ، 15/6. الجوهرة النيرة، أبو بكر بن علي اليمني الحنفي (ت:800هـ)، المطبعة الخيرية، ط/1، (1322هـ)، 193/1.رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين الحنفي (ت:1252هـ)، دار الفكر، بيروت، ط/2، (1412هـ/1992م)، 575/4. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، (من 1404-1427هـ)، 132/34. مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان، محمد قدري باشا(ت:1306هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، (1308 هـ/1891م)، ص:51.

للأشياء، يتحلى بها الإنسان متى كان فيها نفع وصلاح، وتخلي عنها ويجتنبها متى كان فيها فساد وضرر، وهذا ما يؤكده الدكتور طه عبد الرحمن بقوله: "القيم هي جملة المقاصد التي يسعى القوم إلى إحقاقها متى كان فيها صلاحهم، عاجلا أو آجلا، أو إلى إزهاقها متى كان فيها فسادهم، عاجلا أو آجلا"[1].

ولم ترد كلمة "القيم" في التراث العربي بالمعنى الذي يستعمل اليوم، أما الكلمة التي تقابل لفظ القيم في التراث الإسلامي هي لفظ "الأخلاق"[2]، ومن مؤلفات علم الأخلاق في التراث الإسلامي نذكر: "رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل" ابن حزم(456هـ)، واعتمد المؤلف تقديم الأخلاق على شكل نصائح علمية تهتم بالقيمة العليا للفضيلة، وكتاب ابن مسكويه (421هـ)، "تهذيب الأخلاق"، وهو يمثل أنموذجا من منهج العلماء الذين قاموا بوصف طبيعة النفس وملكاتها وقاموا بتحديد مراتب الفضيلة بطريقة تتبع في الغالب أنموذج أفلاطون أو أنموذج أرسطو.

وهناك من العلماء من جمع بين المنهجين السابقين مثل: "كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة" للراغب الأصفهاني(506هـ)، و"إحياء علوم الدين" للغزالي(505هـ)، أما المعاصرين فنذكر: عبد الله دراز "دستور الأخلاق في القرآن دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن"، وطه عبد الرحمن "سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية"، وعابد الجابري "العقل الأخلاقي العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية"، ومنهج هؤلاء في تناول الأخلاق مختلف عن السابقين.

---

[1]. الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط/2، (2006)، ص: 68.

[2]. نظرات في لغة المصطلح وفي مضمونه، ناصر الدين الأسد، من أعمال ندوة "أزمة القيم و دور الأسرة في تطور المجتمع المعاصر"، الدورة الربيعية لسنة: 2001، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة "الدورات" مطبعة المعارف الجديدة الرباط، 2002، ص: 49.

ومقصودنا بالقيم في هذه الدراسة هو: "تلك القيم والفضائل الخلقية، التي تحكم حياة الناس في كل مناحي حياتهم الفردية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ..، وهي المثل العليا التي ينشدها الإنسان ويرغب في التحلي بها، والتخلي عن نقيضها. وهي المعتقدات والقناعات الشخصية التي تؤطر رؤية الإنسان للإله والكون والحياة".

وهذا كله هو ما يطلق عليه: "علم القيم: علم يشمل القيم أو الفضائل، وبوجه خاصّ القيم الأخلاقيّة."[1]، ويقول دراز عن موضوع علم الأخلاق: "وموضوعه تنظيم النشاط الإنساني"[2].

المدخل المنهجي الثاني: مصادر القيم

المصدر الأول: أسماء الله تعالى وصفاته:

والمقصود التخلق بالقيم التي تدل عليها أسماء الله تعالى وصفاته، وليس المقصود أن يتسمى الإنسان بتلك الأسماء والصفات، مثل: الرحمة والعفو والصفح والحلم والشكر والعلم ...، وغيرها مما يسميه العلماء ب"أسماء التخلق"، ويقابلها "أسماء التعلق" وهي التي انفرد الله تعالى بها فلا يدعى بها غيره، مثل: اسم الجلالة "الله" والأول والظاهر والباطن والأول والآخر والحي والقيوم ..، ومن صفات الله المتكبر الجبار، وهو سبحانه ينهى عن التكبر والتجبر على الخلق فهي صفة خاصة به سبحانه.

الله تعالى هو المثل الأعلى للخلق فهو خالقهم وهو ربهم الذي دعاهم إلى كل قيمة فاضلة، وكل خلق كريم، فكانت أسماؤه وصفاته مصدرا من مصادر هذه القيم، فإن الله تعالى عالم ودعا الخلق إلى طلب

[1]. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر(ت:1424هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط/1، (1429هـ/2008م)، 3/ 1878.

[2]. دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، تعريب والتحقيق والتعليق: عبد الصبور شاهين، مراجعة: محمد السيد بدوي، مؤسسة الرسالة، ط/10، (1418هـ/1998م)، ص: 96.

العلم ونهى عن الجهل، وهو سبحانه الحليم ودعا الخلق إلى الحلم والصبر وهو سبحانه يحب الصابرين ..، وقد وصف الله تعالى ذاته بالرحيم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(البقرة:143)، وهو سبحانه العادل دعا الخلق إلى قيمة العدل ونهى عن الظلم وحرمه على نفسه وجعله محرما بين خلقه ..

يقول ابن القيم رحمه الله: "وها هنا سر بديع وهو أن من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه والرب تعالى هو الصبور بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه وقد قيل إن الله سبحانه أوحى إلى داود "تخلق بأخلاقي فإن من أخلاقي أنى أنا الصبور" والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد فإنه جميل يحب الجمال عفو يحب أهل العفو كريم يحب أهل الكرم عليم يحب أهل العلم وتر يحب أهل الوتر قوى والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف صبور يحب الصابرين شكور يحب الشاكرين واذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف فهذه المعية الخاصة عبر عنها بقوله "كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا"[1].

المصدر الثاني: الأنبياء والرسل

الأنبياء والرسل أكثر الناس تخلقا بالقيم الفاضلة، وأكثرهم تمثلا لأخلاق الله تعالى التي تدل عليها صفاته، وقال تعالى عن اتصاف سيدنا إبراهيم بقيمة الحلم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾(هود:75)، ووصف القرآن الكريم سيدنا نوح وموسى عليهما السلام بأنهما من الشاكرين قال

[1]. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن قيم الجوزية (ت:751هـ) دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، السعودية، ط/3، (1409هـ/1989م)، ص: 48.

تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾(الإسراء :2-3).

وقال تعالى في وصف نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:128)، ووصفه بالخلق العظيم قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:4) وقال تعالى توجيها لنبيه إلى قيمة الرحمة وترك الغلظة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:159)، وقال تعالى في توجيه نبيه إلى قيمة الدفع بالتي هي أحسن: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت: 34)، وقالت أمنا عائشة عنه صلى الله عليه وسلم: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"[1].

فقد كان أمينا صلى الله عليه وسلم، روي أنه لما أراد الهجرة إلى المدينة خلف عليا وراءه في مكة ليؤدي الودائع لأصحابها، فقريش التي كانت تحاربه، وخرج هاربا منهم إلى مكة، رغم بغضهم وكراهيتهم له كانوا يستأمنونه على ودائعهم، فكان صلى الله عليه وسلم مصدرا للقيم العليا، فلم يكن يفرق في هذه القيمة بين المسلم والكافر، امتثالا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء:58).

فهو صلى الله عليه وسلم "المثل الأعلى" للبشرية في كل عصر ومصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2]، وذلك لأن الله تعالى أدبه

---

[1]. مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنه، رقم: 24601، 148/41.

[2]. جاء في الشفا للقاضي عياض: "ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء، بهذا وصفه ابن أبي هالة قال: وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب ولا فحاش، ولا عياب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه". الشفا بتعريف حقوق

وأحسن تأديبه، وكل هذه القيم التي ذكرنا وغيرها مما هو مثبت في كتاب الله تعالى وكتب السيرة والتاريخ والحديث والأخلاق والشمائل ... وغيرها، دليل على أنه صلى الله عليه وسلم مصدر من مصادر القيم الإنسانية العليا، فقد ثبتت الخيرية للقرون الثلاثة الأولى بفضل صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتربيتهم على يديه.

فقد غير النبي صلى الله عليه وسلم أخلاق وقيم المجتمع الذي بعث فيه[1]، عبادة الأصنام، وأكل الميتة، وإتيان الفواحش، وقطع الأرحام والإساءة للجار، والقوي منهم يأكل الضعيف ..، وهي كما هو واضح أخلاق جاهلية منحرفة هابطة[2].

المصطفى، القاضي عياض(ت:544هـ)، دار الفيحاء، عمان، ط/2، (1407 هـ)، 246/1. وكتاب الشفا كتاب لشمائل النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأحواله الخلقية والخلقية ..

[1]. وقد وصف هذا التغيير الاجتماعي جعفر بن أبي طالب للنجاشي في الحبشة بقوله: "أيها الملك، كنا قوماً أهلَ جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكل المَيْتَة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيفَ، فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينَا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقَه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله، لنوحّدَه ونعبده ونخلعَ ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارمِ والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدَّد عليه أمورَ الإسلام، فصدَّقناه وآمنَّا، واتّبعناه على ما جاء به، فعبدْنا الله وحده فلم نُشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أَحَلَّ لنا، فعَدا علينا قومُنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليَرُدُّونا إلى عبادة الأوثان منِ عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونِا وشقُّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجوْنا أن لا نُظلم عندك أيها الملك". مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث جعفر بن أبي طالب وهو حديث الهجرة، رقم: 1739، 357/2.

[2]. ذهب جابر قميحة إلى أن هذه الأمراض الاجتماعية والخلقية التي كانت سائدة في الجاهلية يمكن تصنيفها إلى نوعين: النوع الأول: "عام شائع يضم المجتمع كله أو أغلبه حتى أصبح جزءا من طبيعته مثل: العدوان والاحتكام إلى القوة في حل النزاعات، وعبادة الأصنام والإيمان بالأزلام وشرب الخمر. والثاني خاص بطبقة أو فئة معينة من الناس مثل: وأد

فإن الأنبياء والرسل قدوة البشرية إلى الخير والصلاح، وأكملهم خلقا، فهم المصدر الثاني من مصادر القيم الفاضلة، فلا طريق للخلق في التخلق سواهم، وخصوصا خاتمهم الذي أكمل الله الدين برسالته محمد صلى الله عليه وسلم.

المصدر الثالث: الوحي

1. الشرائع السماوية السابقة:

الشرائع السماوية السابقة مصدر للقيم الإنسانية، فإن الإنسان مطالب بالإيمان بها، والإيمان بالرسل كلهم، والمسلمون يؤمنون بكل الرسل والأنبياء[1] قال تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(البقرة:185)، من غير تفريق بينهم، أو الكفر ببعضهم، يقول الشيخ رشيد رضا: "وأما المسلمون فيؤمنون بأن رب العالمين أرسل في كل الأمم رسلا هادين مهديين، فهم يؤمنون بهم إجمالا، وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلا"[2].

ووصف الخطاب القرآني الرسائل السماوية بأنها نور وهدى للبشرية، والنبوة هي طريق تبليغ هذا الهدى الرباني للخلق يقول تعالى:

البنات، فلم يكن مرضا شائعا في جميع العرب، بل كان في بعض بطون من تميم وأسد، وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية، وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة." المدخل إلى القيم الإسلامية، جابر قميحة، دار الكتاب المصري القاهرة، ط/1، (1404هـ/1984م)، ص: 17. وموقف الإسلام من القيم الجاهلية تتلخص بين ثلاثة أمور: التحريم والإقرار والتسامي والإعلاء. ينظر تفصيل ذلك عند المؤلف. نفسه: ص: 28.

[1]. قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(البقرة:177)، وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة:136).

[2]. الوحي المحمدي، ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام، رشيد رضا، مؤسسة عز الدين، ط/3، (1406هـ)، ص: 226.

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:15-16)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة:44)، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:46) فوصف الهدى والنور، دليل إرشاد الشرائع السابقة إلى الخير والسعادة والصلاح.

وقد أقرت شريعة الإسلام أحكاما كانت في الشرائع السابقة، منها الصيام قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:183)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم لأتباع موسى في صيام عاشوراء: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِهِ»[1]. وقال صلى الله عليه وسلم في لما سئل عن الأضحية التي كانت في شريعة إبراهيم قال: "سُنَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ"[2].

وقد ذهب الأصوليون إلى أن "شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخه شرعنا" وهذا يدل على سماحة الإسلام، وإيمانه بالاختلاف بين الشرائع، وهذا انفتاح من الإسلام على الشرائع الأخرى وأخذه بالقيم السامية التي لا تتناقض وتوجيهات الإسلام.

2. الشريعة الإسلامية:

والمقصود هو كل ما جاء في الإسلام من شرائع وأحكام، فإن المقصود الأول من رسالة الإسلام هو "الاستقامة الإنسانية"، ومساعدة الإنسان على حسن الاستخلاف وإعمار الأرض، ولا يقوم الإنسان بوظيفته في الكون أحسن قيام إلا وفق منهج الله تعالى.

---

[1]. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط/1، (1422هـ)، كتاب المَنَاقِبِ ، باب إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم، حين قدم المدينة، رقم: 3943، 70/5.

[2]. مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث زيد بن أرقم، رقم: 19283، 34/32.

وركزت الشريعة الإسلامية في تربية الإنسان وتخلقه بالقيم الأخلاقية على معلمين كبيرين: الأول: تزكية النفس الإنسانية، والثاني: مطابقة الظاهر للباطن.

1.2. تزكية النفس الإنسانية:

والمدخل الحقيقي لإصلاح المجتمع الإنساني هو إصلاح الإنسان نفسه، ولا يتم ذلك إلا بتزكية نفسه، وإذا كان الخطاب القرآني دعا إلى تزكية النفس، فإنه جعل لذلك مدخلا أساسيا، لا تتحقق تزكية النفس بدونه وهو ما شرعه من عبادات، وأحكام تشريعية، من أجل بناء مجتمع متحضر[1]، يقول ابن عاشور: "تزكية النفس أهم ما دعا إليه الإسلام وذلك هو قسم العبادات فالعبادات لها خصوصية تزكية النفس بما يقارنها من مراقبة الخالق ومن التفكير في رفع الدرجات فتحصل من تكرارها آثار في النفس تزكيها وتطهرها حتى يصير الخير لها سجية .."[2]، ويقول عماد الدين خليل أن مفهوم العبادة تجعل الإنسان: "يتجاوز السفوح الدنيا للنشاط البشري إلى القمم التي تليق بمكانة الإنسان في العالم"[3].

---

[1]. منهج القرآن في تطوير المجتمع، محمد البهي، مكتبة وهبة، ط/2، (1416هـ/1995م)، ص: 9-34، قام الكاتب بدراسة آيات الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وبين من خلالها كيف بنى القرآن الكريم المجتمع المتحضر بتدرج.

[2]. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، الشركة التونسية، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط/2، 1985م)، ص: 80.

[3]. العقل المسلم والرؤية الحضارية، عماد الدين خليل، دار الحرمين، الدوحة، ط/1، (1403هـ/1983)، ص: 19. وهناك فرق بين عبادة الله تعالى وعبادة الشهوات والغرائز يقول ماجد عرسان: "هناك فرق بين أن يكون الهدف من الحياة هو عبادة الله، وبين أن يكون الهدف هو عبادة الغرائز والشهوات. فقد أثبت تاريخ الإنسان على الأرض، أن الإنسان يرتقي ويتسامى ويتقدم علميا واجتماعيا حين يعبد الله. ولكنه حين يعبد شهواته يقع ضحية الفرقة والصراع والعزلة والوحدة والاغتراب وكلها تنتهي بتحطيم الإنسان أفرادا وجماعات". فلسفة التربية الإسلامية: دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة،

وبين القرآن الكريم أثر العبادات في تزكية النفس الإنسانية، قال تعالى في **أثر الصلاة:** ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾(العنكبوت:45)، فإن الصلاة تنهى عن كل المعاصي التي تشتهيها النفوس، وتستنكرها العقول والفطر، وبذلك يتطهر القلب، وتقوى الرغبة في فعل الخيرات، فالنهي عن الفحشاء والمنكر مقصد عظيم من مقاصد الصلاة[1].

والفحشاء والمنكر من أسوأ ما يتصف به الإنسان، يدخل تحتها كل الأخلاق السلبية المضرة بالفرد والمجتمع، فإن الإنسانية اليوم عجزت بكل ما تملكه من ترسانة قانونية القضاء على الفحشاء والمنكر، والشريعة الإسلامية تقدم لنا الصلاة منهجا تربويا يصل به الإنسان إلى قمة السمو الأخلاقي والقيمي.

يقول محمد قطب في تأثير الصلاة في الإنسان: "الصلاة التي تربط الإنسان بخالقه، فإذا هو كائن عجيب لا يشبهه شيء من خلق الله كله. كائن يقف بجسمه على الأرض وروحه تسبح في السماء. كائن قادر –في عجزه وطاقته المحدودة الفانية– أن يقوم بالمعجزة .."[2].

الصلاة مصدر مهم من مصادر التزكية النفسية، لأن بها يتحقق الاتصال الدائم بالحق سبحانه، الهادي والمرشد لكل خير، وتحقق للإنسان الطهارة

ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، دار المنارة، جدة، ط/1، (1407هـ/1987م)، ص: 80.

[1]. ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي(ت:1376هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/1(1420هـ/2000م) ،632/1. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية(ت546هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط/1، (1422هـ/2001م)، 319/4. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني(ت:1250)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط/1، (1414هـ)، 236/4.

[2]. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط/14، (1414هـ/1993م)، 65/1.

الجسمية والاطمئنان النفسي، والهدوء الروحي ..، وتعوده على النظام وحسن استغلال الوقت .. إلى غير ذلك من مقاصد وقيم.

وقال تعالى في **أثر الزكاة:** ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(التوبة:103)، يقول البيضاوي: "﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله. وقرئ ﴿تطهرهم﴾ من أطهره بمعنى طهره و﴿تطهرهم﴾ بالجزم جوابا للأمر. ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين"[1]، فإخراج الزكاة تطهير للنفس وتزكية لها لأن "النفس تحب أن تتملك، والتملك أمر غريزي في النفس"[2].

الزكاة تطهير للنفس من القيم السلبية مثل الشح والبخل، وحب الأثرة البغيضة التي لا تشعر بالآخرين، وتحليها بقيمة الأخوة النبيلة التي تعتبر الإنسانية أسرة واحدة، على أساس أنهم شركاء في الخير[3].

فإن عبادة الزكاة تزكي النفس وتطهرها من رذائل: البخل والشح والجشع ..، وتعود الإنسان على الأخلاق الحميدة: الكرم والجود والإيثار ..، وتمكن من التضامن والتكافل الاجتماعي، وتوفر الاستطاعة للمحتاجين ..، وتسهم في إقامة المصالح الإنسانية المشتركة ذات النفع العام ..، وتحد من تكديس الأموال في يدي الأغنياء على حساب الفقراء ..، فهي رمز للأخوة المتضامنة.

وقال تعالى في أن الالتزام بأحكام الشرع عموما وما جاء به من عبادات يزكي النفس البشرية: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور:30)، وقال تعالى في آداب الاستئذان: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا

---

[1]. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي(ت:791هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبحي بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد دمشق بيروت، مؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط/1، (1421هـ/2000م)، 77/11.

[2]. تفسير الشعراوي(الخواطر)، محمد متولي الشعراوي(1418هـ)، راجع أصله وخرج أحاديثه: أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، بدون طبعة، بدون تاريخ، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام (1991م)، ص: 5467.

[3]. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، 65/1-66.

فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور:28)، وقال تعالى في أثر الالتزام بالأحكام الشرعية في التزكية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:232).

يقول القرضاوي: "إن الذي لا ريب فيه: أن صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها، وصلاح الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم، وبعبارة أخرى: بتزكية هذه الأنفس حتى تنتقل من (النفس الأمارة بالسوء)[1] إلى (النفس اللوامة)[2] ثم (النفس المطمئنة)[3][4].

2.2. مطابقة الظاهر للباطن:

والعبادات في الإسلام لا تؤدي دورها في تزكية النفس وتطهيرها إلا إذا روعي في آدائها المعاني الباطنة، ومرافقة العمل الظاهر للباطن، وإلى هذا أشار الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(البقرة:177)، فالخطاب القرآني ينبه إلى أن البر الذي هو اسم جامع لكل الخصال والقيم

---

[1]. في إشارة إلى قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف:53).

[2]. في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة:2).

[3]. في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (البلد:27-28).

[4]. كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط/3، 1421هـ/2000م)، ص: 94.

الحميدة[1]، ليس مظاهر فقط، بتولية الوجه قبل المشرق والمغرب، بل هو تكامل بين الظاهر والباطن.

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك –وفي حديث أبي أسامة غيرك– قال: "قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ"[2].

ويقول الشاطبي في تأكيد هذا المعنى: "الأعمال الظَّاهِرَة في الشرع دليل على ما في الباطن، فإنْ كان الظَّاهِرُ منخَرمًا، حكمَ على الباطنِ بذَلكَ، أو مستقِيمًا، حكمَ على الباطن بِذلكَ أيضًا، وهو أصلٌ عامٌّ في الفقهِ .."[3]. ويقول سعيد حوى: "العبادات الرئيسية في الإسلام منورة ومطهرة بقدر ما تلاحظ معانيها الباطنة، فهي تؤثر التأثير الكامل إذا كانت كاملة بحيث يرافق عمل الظاهر فيها عمل الباطن .."[4].

[1]. ينظر: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الفخر الرازي(ت: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/3، 1420 هـ)، 40/5. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 83/1.

[2]. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري(ت:261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم: 38، 95/1.

[3]. الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي(ت: 790هـ)، شرحه وخرج أحاديثه: عبد الله دراز، وضع تراجمه: محمد عبد الله دراز، خرج آياته وفهرس موضوعاته: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، (1411هـ/1991م)، 171/1. مجموع الفتاوى، ابن تيمية(ت:728هـ)، تحقيق: عبد الرحمان بن محمد بن القاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، (1416هـ/1995م)، 582/7.

[4]. المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، مصر، ط/10، (1424هـ/2004م)، ص: 31.

المصدر الرابع: الفطرة الإنسانية:

ومما يدل على أن الإنسان قد ترشده فطرته إلى القيم السليمة والصحيحة ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾(البقرة: 219)، وقيل في سبب نزول هذه الآية أن نفرا من الصحابة قالوا: "يا رسول اللَّهِ أَفْتِنَا في الخمرِ، فإنهَا مُذْهِبَةٌ لِلْعَقْلِ، مُسْلِبَةٌ للمالِ، فنزل فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فَشَرِبَهَا قَوْمٌ وَتَرَكَهَا آخَرُونَ"[1]وفي سؤال المسلمين على تحريم الخمر، دليل على اهتدائهم بفطرتهم إلى خبثها.

كما أن هناك من المشركين من كان لا يشربها ويحرمها على نفسه، جاء في تفسير الرازي: "وعن الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ أنهُ قيل له في الجاهلية: لمَ لا تشربُ الخمرَ فإنهَا تزِيدُ في جَرَاءَتِكَ؟ فقال مَا أَنَا بِآخِذٍ جَهْلِي بِيَدِي فَأُدْخِلُهُ جَوْفِي، ولا أَرْضَى أنْ أُصْبِحَ سَيِّدَ قَوْمٍ وَأُمْسِيَ سَفِيهَهُمْ"[2].

وهذا الذي خاف منه الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ، واهتدى إليه بفطرته، هو الذي وقع فيه أحدهم "ذكر ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا أنه مَرَّ على سكرَانَ وهو يَبُولُ في يَدِهِ ويمسحُ بِهِ وجههُ كَهَيْئَةِ المتوضِّئِ، ويقول: الحمدُ للهِ الذي جعل الإسلامَ نورًا والماء طهورًا"[3].

ومن الأدلة كذلك: نقض بعض الكفار لصحيفة مقاطعة قريش للنبي وآله من بني هاشم، وإمدادهم بالطعام سرا، وهم ليسوا على دين محمد صلى الله عليه وسلم، كتب القرشيون "صحيفة المقاطعة" وتعاقدوا فيها ألا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب، ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ..، حتى يسلموا لهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وعلقوا الصحيفة على سقف الكعبة، وطبقوا عليهم "الحصار والعزل الاجتماعي" لمدة ثلاث سنوات، وفي ظل هذه المحنة ظهرت قيم الرجولة

---

[1]. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الفخر الرازي، 396/6.

[2]. نفسه، 401/6.

[3]. نفسه.

والشهامة الإنسانية الفطرية، يروي ابن هشام عن هشام بن عمرو "فكان .. يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا، قد أوقره طعاما، حتى إذا أقبل به فم الشِّعْبِ خلع خِطَامَهُ من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشِّعْبَ عليهم ثم يأتي به قد أَوْقَرَهُ بَزًّا[1]، فيفعل به مثل ذلك"[2]، وقال عنه أيضا: "قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفرٌ من قريش، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو .. وكان ذا شرف في قومه"[3].

ومن الأدلة كذلك: استنكار هند بنت عتبة في بيعة النساء للنبي صلى الله عليه وسلم، أن تزني الحرة، دخل صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا فأخذ بيعة الرجال، وأخذ بيعة النساء، عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبَةَ بن ربيعَةَ تبايع النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذ عليها أن «﴿لَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ﴾(الممتحنة: 12)»[4]، "قالت: أوتزني الحرة؟"[5]، فهذا استفهام استنكاري من هند بنت عتبة، وهو دليل على أن الحرائر لم تكن تزني، وأن الزنا كان مستقبحا، منبوذا، منافيا لما فطرت عليه الإنسانية.

---

[1]. ذكر المحقق أن النسخ اختلفت، هل هو "برا" أو "بزا" وفي رواية"بزا أو برا".

[2]. السيرة النبوية، ابن هشام(213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط/2، (1375هـ/1955م)، 374/1.

[3]. نفسه، 375/1.

[4]. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان(354هـ)، ذكر الأسباب التي كانت بيعة النساء على المصطفى صلى الله عليه وسلم بها، رقم: 4554، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/2، (1414هـ/1993م)، 418/10. وقال المحقق: "حديث صحيح، ابن أبي السري متابع، ومن فوقه ثقات على شرط الشيخين". نفسه.

[5]. مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي(ت:307هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط/1، (1984/1404)، مسند عائشة، رقم: 4754، 194/8. وقال المحقق: "إسناده ضعيف".

ومن أشهر وأقوى ما يدل على اعتبار الفطرة مصدرا من مصادر القيم الأخلاقية، حلف الفضول وملخص قصته كما حكت ذلك كتب التاريخ أن قبائل من قريش تعاهدوا وتعاقدوا على التعاون فيما بينهم على أن لا يظلم بمكة أحدا سواء كان من سكانها أو من الواردين عليها، وأن يساندوا المظلوم حتى ترد له مظلمته، وسمي بذلك الحلف بحلف الفضول[1].

فقد اتفق الموقعون على رد المظالم وإعانة المظلوم، وغيرها من القيم الإنسانية المشتركة. ولا يضعف الاستشهاد به كونه وقع قبل الإسلام، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أقره بعد البعثة وأكد التزامه به، قال: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ»[2].

قال ابن كثير فيما ينقله عن أصحاب السير: "تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها وألا يغزو ظالم مظلوما"[3]، وذكر ابن حجر أن الحلف كان عاما في كل

---

[1]. وقال أيضا: "وكان حلفهم أن لا يعين ظالم مظلوما بمكة، وذكروا في سبب ذلك أشياء مختلفة محصلها: أن القادم من أهل البلاد كان يقدم مكة، فربما ظلمه بعض أهلها فيشكوه إلى من بها من القبائل، فلا يفيد، فاجتمع بعض من كان يكره الظلم ويستقبحه، إلى أن عقدوا الحلف، وظهر الإسلام وهم على ذلك" فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون طبعة، (1379هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، 473/4.

[2]. السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي(ت:458هـ)، كتاب قسمِ الفيءِ والغنيمة، باب إعطاء الفيءِ على الدِّيوَانِ ومن يقع به البداية، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/3، (1424هـ/2003م)، 596/6. ومن شواهده: قوله صلى الله عليه وسلم: "وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم، رقم: 2530، 1961/4. والنبي صلى الله عليه وسلم تحالف مع خزاعة.

[3]. البداية والنهاية، ابن كثير(ت:774هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط/1، 1408هـ/1988م)، 356/2.

خلال الخير: "وكان جمع من قريش اجتمعوا، فتعاقدوا على أن ينصروا المظلوم وينصفوا بين الناس، ونحو ذلك من خلال الخير"[1].

فإن الفطرة السليمة تعتبر مصدرا للقيم، فهناك في كل الأزمنة والأمكنة عقلاء يدعون إلى المصلحة والمنفعة الإنسانية المشتركة، فيجب على هؤلاء العقلاء أن يعملوا كل ما في وسعهم من أجل نشر الفضائل الإنسانية، التي ترفع من قيمة الإنسان، وكانت دعوة الإسلام إلى ذلك واضحة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾(هود:116).

المدخل المنهجي الثالث: خصائص القيم

الخاصية الأولى: التدرج في التشريع:

والتدرج سنة الله تعالى في الخلق، فإن كل الظواهر الطبيعية والإنسانية قائمة على التدرج، فالإنسان خلقه الله تعالى بالتدرج، تدرج في الخلق داخل البطن: من نطفة ثم من علقة ..، إلى غير ذلك من أدوار خلق الجنين، ثم بعد الولادة تدرج بالانتقال من طور إلى طور ..، والحق سبحانه جعل هذا التدرج التكويني في تشريع القيم المناسبة لكل طور تدريجي، فكان التدرج في التشريع خاصية من خاصيات القيم في نظرية القيم الإسلامية.

ولهذا التدرج القيمي مقاصد تشريعية هامة منها:

1. اليسر ورفع الحرج على الناس، وعدم تكليفهم بما لا يطيقون: جاء التشريع القيمي بما يناسب كل طور من أطوار الإنسان الحياتية، فكانت "الاستطاعة" شرطا في التكليف قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(البقرة:286).

2. التدرج في التربية على القيم: لأن تلقي القيم التربوية بشكل تدريجي، يراعي الفروقات الفردية للمتعلم، أو للإنسان عموما، يجعلها تستقر في نفسه، فيحفظها ويحافظ عليها، ويكون لها أثر عميق في نفسه، فالتدرج في التربية على القيم

[1]. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، 10/ 502.

يساعد على استيعابها وممارستها، لأنه لو عرضت عليه قيم لا تناسب سنه أو حالته النفسية والاجتماعية، لكان ذلك عبثا، والله تعالى منزه عن العبث، وقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم قال تعالى: " ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:125)[1] وفي هذا دلالة على اختلاف مستويات الخطاب، لاختلاف مستويات التصديق والإقناع عند المخاطبين يقول الغزالي: "واعلم أن المدعو إلى الله بالحكمة قوم، وبالموعظة قوم، وبالمجادلة قوم"[2].

فالناس يختلفون في تصديقاتهم رغم وحدة الحقيقة، فطرق الوصول إليها تختلف وتتغاير يقول ابن رشد: "وذلك أن عقول الناس متفاضلة في التصديق، فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية"[3].

3. ترتيب الكليات: حيث بدأ الخطاب المكي بالكليات العقدية، التي تناسب الواقع المكي، ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جاء الخطاب المدني بالكليات القيمية الكبرى المتعلقة بالتشريع، التي تناسب الواقع المدني

---

[1]. يقول القرطبي في سبب نزول هذه الآية، والقول بنسخها من عدمه: "هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة. والله أعلم". الجامع لأحكام القرآن، القرطبي(ت:671هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، بدون طبعة، (1423هـ/2003م)، 46/6.

[2]. القسطاس المستقيم، الغزالي، قدم له وذيله وأعاد تحقيقه: فيكتور شلحت، ماجستير في الأدب من جامعة القاهرة، منشورات دار الشروق، بيروت، لبنان، ط/2، 1983)، ص: 41.

[3]. فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد(ت:1126هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، ط/2، بدون تاريخ، ص:31.

المتعلق ببناء الدولة، حيث يحتاج المجتمع إلى قيم سياسية[1]، واجتماعية[2]، واقتصادية[3]، وقيم العلاقات الدولية[4] ..، تخدم حاجات المجتمع في تلك المرحلة.

وخاصية التدرج تجعل الإنسان متهيئا نفسيا وعقليا، لتقبل هذه القيم، واستيعابها وفهم فلسفتها، وتنزيلها على الواقع بسهولة ويسر من غير اضطراب ولا تكلف.

الخاصية الثانية: التوازن:

وخاصية التوازن خاصية عامة للتشريع القيمي الإسلامي، حيث جاء الإسلام الرسالة الخاتمة، حيث لا رسالة بعده، ولا نبي بعد سيدنا محمد صلى الله

---

[1]. تشريع الشورى والعدل ... وهي من القيم الكلية في نظام الحكم الإسلامي.

[2]. حرم الخمر وهو من الأمراض الأخلاقية في المجتمع الجاهلي، وكان التحريم بتدريج، من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾(البقرة: 219) إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(النساء:43) إلى التحريم النهائي في المدينة بعد ما تهيأت النفوس لتلقي هذا التحريم وتقبله بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾(المائدة:90-91)، جاء في مسند أحمد أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال بعد آية البقرة والنساء : "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال: فقال عمر انتهينا، انتهينا". مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم: 378، 322/1.

[3]. الزكاة فرضت بالمدينة بعد الهجرة بعامين.

[4]. لم يشرع الجهاد إلا بعد الهجرة إلى المدينة، والناظر في الخطاب القرآني يجد أن آيات الجهاد كلها مدنية، وتماشيا مع سنة التدرج في الجهاد، بدأ بالإذن قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(الحج:39)، ثم جاء بعده الفرض: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:216). ينظر: رد ابن القيم على من ادعى أن آية الحج والبقرة السابقين مكيتين في كتابه: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط/27، (1415هـ/1994م)، 62/3.

عليه وسلم، فجاءت هذه الرسالة كاملة ومتوازنة تراعي كل الجوانب الإنسانية: الروحية والعقلية والجسدية، عكس الشرائع السابقة، حيث جاءت اليهودية تهتم بالجانب "المادي الأرضي الدنيوي"، وجاءت المسيحية كرد فعل لها حيث اهتمت بالجانب "الروحاني والمثالي الخالص"[1].

قال تعالى في حق أمة الإسلام: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:143) يقول رشيد رضا: "قالوا: إن الوسطَ هو الْعَدْلُ وَالْخِيَارُ، .. فالْخِيَارُ: هو الوَسَطُ بينَ طَرَفَيِ الْأَمْرِ، أي: الْمُتَوَسِّطُ بينهمَا .. ذلك أن الناسَ كانوا قبل ظهورِ الإسلامِ على قسمين: قسم تَقْضِي عليه تقاليدهُ بالْمَادِّيَّةِ الْمَحْضَةِ، فلا همَّ لهُ إلا الْحُظُوظَ الجسدِيَّةَ كاليهودِ والْمشرِكِينَ، وقسمٌ تحكمُ عليه تقاليدهُ بالرُّوحَانِيَّةِ الْخَالِصَةِ وترك الدنيَا وما فيها من اللذَّاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ، كالنصارَى والصَّابِئِينَ وطوائف من وَثَنِيِّي الْهِنْدِ أصحاب الرِّيَاضَاتِ. وأمَّا الأمةُ الإسلاميةُ فقد جمع الله لهَا في دينِهَا بين الْحَقَّيْنِ: حَقِّ الرُّوحِ، وَحَقِّ الْجَسَدِ، فهي رُوحَانِيَّةٌ جُسْمَانِيَّةٌ، وإن شِئْتَ قلت إنَّهُ أعطاها جميعَ حقُوقِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فإنَّ الإنسانَ جِسْمٌ وَرُوحٌ، حَيَوَانٌ وَمَلَكٌ"[2].

وهذا ليس أمرا مستغربا، إذا فهمنا أن كل شريعة كانت خاصة بالقوم الذين أنزلت فيهم، فكانت أحكام كل شريعة لواقع خاص، ولزمن خاص ..، حتى جاءت الشريعة الكاملة الخاتمة، فاقتضى ذلك أن تكون أحكامها عامة وشاملة ومتوازنة، لأن الوجود الإنساني يتطلب التوازن، لا الاقتصار على المادي دون الروحاني أو العكس، فجاءت الشريعة الإسلامية لتربط الإنسان بالسماء غير غافلة عن حظوظه الأرضية الدنيوية.

---

[1]. ينظر تفاصيل ذلك في: محاضرات في النصرانية: تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط/3، بدون تاريخ، ص: 13.

[2]. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا(ت:1354هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1990م)، 2/4-5.

الخاصية الثالثة: قصد وجه الله تعالى:

بمعنى أن القيم الإسلامية لا تؤدي دورها التغييري بالنسبة للفرد ولا للمجتمع، إلا إذا كانت خالصة لوجه الله تعالى، لا يقصد بها غيره سبحانه، لأن هذه الخاصية من أهم خصائص القيم الإسلامية، فهي تجرد القيم من المنافع المادية، وهذا لا يعني أن القيم في الإسلام لا ترتبط بمنافع مادية، بل قد يكون القصد الأصلي هو إرادة وجه الله، والقصد التبعي إرادة بعض المنافع، لكن نشدان العلو والسمو في منظومة القيم الإسلامية يفرض على الخلق أن يكون القصد الله، أن يكون المبتغى الامتثال لأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، لأن العبد يقصد رضا الله تعالى بعيدا عن الرياء أو السمعة أو غيرها من المنافع.

يقول الغزالي في ذلك: "بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الإخلاص المطلق فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط."[1]

المدخل المنهجي الرابع: مقاصد القيم:

القرآن الكريم يحث العقل الإنساني ويوجهه إلى القصد من الالتزام بالأخلاق والقيم الفاضلة، وهي تربية تقوي الباعث لدى الإنسان في الإقبال بقوة على القيم الأخلاقية التي تحقق المصالح والمنافع، واجتناب الأخلاق التي توقع في المفاسد والمهالك.

والدليل على ذلك إشارات كثيرة في الخطاب القرآني نذكر منها:

قال تعالى في توجيه الزوجين حال النزاع إلى قيمة الصلح وأنه خير: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾(النساء:28)، وقال تعالى عقب الإرشاد إلى قيمة الاجتماع

[1]. إحياء علوم الدين، الغزالي(505هـ)، دار المعرفة، بيروت، 381/4.

والألفة[1]، وعقب الإرشاد إلى قيمة التقوى[2]، وعقب الإرشاد إلى قيمة الوزن بالقسط[3]، وعقب الحث على الإنفاق على ذوي القربى والمساكين وابن السبيل[4] .. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ بمعنى أن كل هذه القيم والأخلاق الفاضلة، فيها خير ونفع للفرد والمجتمع ...

وقال تعالى عقب الحث على قيمة الاستئذان قبل دخول البيوت ﴿هُوَ أَزْكَى﴾[5]، وقال تعالى في الإرشاد إلى المقصد من غض البصر وحفظ الفرج ﴿ذَلِكَ أَزْكَى﴾[6].

وقال تعالى في سياق قصة قتل قبيل لهابيل ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[7]، وقال تعالى بخصوص قوم صالح بعد عقرهم الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾[8]، وقال تعالى في سياق توجيه المؤمنين إلى قيمة التثبت في نقل الأخبار ﴿.. فَتُصْبِحُوا

---

1. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء :59).

2. ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف:26).

3. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (الإسراء :35).

4. ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

5. ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور :28).

6. ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(النور :30).

7. ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة:31).

8. ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ (الشعراء :155-156).

عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1] وقال تعالى في سياق الحث على قيمة كتابة الدين وتوثيقه في "آية الدين" ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾[2].

فكل هذه الآيات وغيرها كثير في خطاب الوحي تدل على أن الشارع يدعونا للالتزام بالقيم الفاضلة عن طريق ذكر المقاصد والمنافع المترتبة عنها، وهناك آيات أخرى تدل على التفاضل بين القيم الايجابية والقيم السلبية، وعدم التسوية بينهما ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ (المائدة:100).

والقرآن الكريم لا يفاضل بين الناس على أساس القيم المادية، بل التفاضل على أساس القيم المعنوية: كالدين والتقوى والعلم .. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:13) ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:9)، وهذا ما يؤكد تغليب الرؤية القرآنية للقيم المعنوية على القيم المادية من جاه ومال ونفوذ .. وغيرها من أشكال النزعات التي يفتخر بها، وإنما يوجه المجتمع البشري إلى الاعتناء بأهل القيم والأخلاق.

الخاتمة:

من خلال محاور هذه الدراسة يمكننا استخلاص ما يلي:

- لفظ "القيم" لغة واصطلاحا متعدد الدلالات والمعاني، لكن ما يقابله في الفكر الإسلامي هو لفظ "الأخلاق".
- منهج الشريعة الإسلامية في تحديد مصادر القيم منهج متنوع: التخلق بأخلاق الله، والتخلق بأخلاق النبوة، والتخلق بما جاء في الشرائع

[1]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:6).

[2]. ﴿.. وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا .. ﴾ (البقرة:282).

السابقة، وما جاء في الشريعة الخاتمة، والاسترشاد بالفطرة السليمة كذلك في تلمس القيم.

- القيم الأخلاقية الإسلامية تتميز بخصائص تميزها عن التشريعات الوضعية، فهي تشريع يراعي التدرج، وراعي التوازن، ويراعي وجه الله أصالة.
- مقاصد القيم وغاياتها هي الباعث الداخلي على امتثالها، أو اجتنابها، فإذا علم الإنسان ما في القيمة من مصالح أو مفاسد، كان ذلك عونا له على الاختيار عن بصيرة واقتناع.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

إحياء علوم الدين، الغزالي(505هـ)، دار المعرفة، بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.

أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، الشركة التونسية، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط/2، (1985م).

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي(ت:791هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبحي بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد دمشق بيروت، مؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط/1، (1421هـ/2000م).

البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نجيم المصري (ت:970هـ)، دار الكتاب الإسلامي، ط/2، بدون تاريخ.

البداية والنهاية، ابن كثير(ت:774هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط/1، (1408هـ/1988م).

تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي(ت:1205هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون طبعة، بدون تاريخ.

تفسير الشعراوي(الخواطر)، محمد متولي الشعراوي(1418هـ)، راجع أصله وخرج أحاديثه: أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، بدون طبعة، بدون تاريخ، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام: (1991م).

تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا(ت:1354هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1990م).

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي(ت:1376هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/1، (1420هـ/2000م).

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي(ت:671هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، بدون طبعة، (1423هـ/2003م).

الجوهرة النيرة، أبو بكر بن علي اليمني الحنفي(ت:800هـ)، المطبعة الخيرية، ط/1، (1322هـ).

الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط/2، (2006م).

دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، عبد الله دراز، تعريب والتحقيق والتعليق: عبد الصبور شاهين، مراجعة: محمد السيد بدوي، مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية، ط/10، (1418هـ/1998م).

رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين الحنفي(ت:1252هـ)، دار الفكر، بيروت، ط/2، (1412هـ/1992م).

السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي(ت:458هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/3، (1424هـ/2003م).

سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط/1، (2000م).

السيرة النبوية، ابن هشام(213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط/2، (1375هـ/1955م).

الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض(ت: 544هـ)، دار الفيحاء، عمان، ط/2، (1407 هـ).

شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني(ت:573هـ)، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر ، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط/1، (1420هـ/1999م).

صحيح ابن حبان(354هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/2، (1993/1414)..

صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط/1، (1422هـ).

عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن قيم الجوزية(ت:751هـ) دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، السعودية، ط/3، (1409هـ/1989م).

العقل المسلم والرؤية الحضارية، عماد الدين خليل، دار الحرمين، الدوحة، ط/1، (1403هـ/1983).

فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بدون طبعة، (1379هـ).

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني(ت:1250)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط/1، (1414هـ).

فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد(ت:1126هـ)، دراسة وتحقيق محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، ط/2، بدون تاريخ.

فلسفة التربية الإسلامية: دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة، ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، دار المنارة، جدة، ط/1، (1407هـ/1987م).

القسطاس المستقيم، الغزالي، قدم له وذيله وأعاد تحقيقه: فيكتور شلحت، ماجستير في الأدب من جامعة القاهرة، منشورات دار الشروق، بيروت، لبنان، ط/2، (1983م).

كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، ط/3، (1421هـ/2000م).

لسان العرب، ابن منظور(ت:711هـ)، دار صادر، بيروت، ط/3، (1414هـ).

مجموع الفتاوى، ابن تيمية(ت:728هـ)، تحقيق: عبد الرحمان بن محمد بن القاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، (1416هـ/1995م).

محاضرات في النصرانية: تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط/3، بدون تاريخ.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية(ت546هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط/1، (1422هـ/2001م).

المدخل إلى القيم الإسلامية جابر قميحة، دار الكتاب المصري القاهرة، ط/1، (1404هـ/1984م).

مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان، محمد قدري باشا(ت:1306هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، (1308 هـ/1891م).

المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، مصر، ط/10، (1424هـ/2004م).

مسند أبي يعلى(307هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط/1، (1984/1404).

مسند أحمد بن حنبل(ت:241هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط/1، (1421هـ/2001م).

معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر(ت:1424هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط/1، (1429هـ/2008م).

مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الفخر الرازي(ت:606هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/3، (1420هـ).

منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط/14، (1414هـ/1993م).

منهج القرآن في تطوير المجتمع، محمد البهي، مكتبة وهبة، ط/2، (1416هـ/1995م).

الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي(ت: 790هـ)، شرحه وخرج أحاديثه: عبد الله دراز، وضع تراجمه: محمد عبد الله دراز، خرج آياته وفهرس موضوعاته: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، (1411هـ/1991م).

الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، (1404-1427هـ).

نظرات في لغة المصطلح وفي مضمونه، ناصر الدين الأسد، من أعمال ندوة "أزمة القيم و دور الأسرة في تطور المجتمع المعاصر"، الدورة الربيعية لسنة (2001)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة "الدورات"، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، (2002)

الوحي المحمدي، ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام، مؤسسة عز الدين، ط/3، 1406هـ).